لينوتشكا

للقصصي الروسي اسكندر كوبرين

بقلم محمد شكري عياد

اسكندر كوبرين ، كاتب روسي قريب العهد ؛ يمتاز عن كثير من الكتاب الروس بأنه لم تكن له رسالة في الحياة غير الفن . فقد كان يكتب للفن وحده ، يتناول الحياة باحساس فنان فيخرجها بريشة فنان ، غير قاصد إلى فكرة إصلاحية أو فلسفة اجتماعية . على حين كان تولستوي مصلحاً اجتماعياً ، ودستوفسكي متصوفاً فيلسوفاً ، وجوركي داعية شيوعياً .
وتعد لينوتشكا من أروع ما كتب كوبرين ؛ فهي تحلل إحساساً دقيقاً عالياً من إحساسات النفس البشرية ، وتحلله تحليلا صادقاً قوياً خلاباً .
وللقصصي الفرنسي جي دي موباسان قصة عنوانها « انتهى Fini » قريبة الشبه من قصة كوبرين هذه ، لولا ما تمليه القومية والبيئة وشخصية الكاتبين من اختلاف في أسلوب العرض والتشخيص Delineation .
وقد نترجمها لقراء الرواية في عدد قادم ، لنتيح لهم فرصة المقارنة بين فنين عظيمين في القصة

« المترجم »

عند ما ارتحل الكولونيل فوزنتزين من بطرسبرج إلى الكريميا ، عاج على موسكو فقضى فيها يومين يتلمس في مهدها ذكريات طفولته ، ويذكي بين ربوعها أحلام شبابه

ويقال إن بعض الحيوان إذا أحس دنو الأجل ارتد مودعاً إلى مسارحه الأولى . وما كان بفوزنتزين من داء يهدده بميتة مبكرة ، فقد كان لما يزل في الأربعين من عمره ، قوي العود منتصب القامة ، صحيح الجسم . ولكنه كان يرى في إحساساته ومشاعره وصلاته بالعالم منذراً بشيخوخة الروح وهرم النفس كان يحس عزوفاً عن اللهو وانصرافاً إلى تذكارات الأيام الماضية وإنكاراً لكل ما يحيط به . وذهب من قلبه حب اجتلاء الطبيعة مخلفاً إحساساً دقيقاً مرهفاً بالجمال ؛ فلم يعد يجد في مفاتن النساء ما يستفزه أو يستثيره ، وأدهى من كل ذلك أنه بات يفكر في الموت على غير دأبه ، حين كان يخيل إليه أنه ليس هو الذي سيموت بل شخص آخر اسمه فوزنتزين فراح ينتشق أعراف الحب من رياض الشباب ، ويحيي في قلبه المعمود أول إحساسات الحياة

ذهب إلى المدرسة الداخلية في حقول جروهوفي ، حيث تثقف من السادسة على المذهب الفزوبليّ تحت إشراف عجائز خيّرات ، فألفى كل شيء قد تغير ، وأُلفيَ من المدرسة قسم البنين . ثم زار المدرسة الحربية وكنيسة كاريم حيث وقف إبان تلمذته يناول القسيس البخور ، وحيث سرق أطراف الشموع وشرب الماء الفاتر بعد حفلة العشاء الرباني الأخير ، ورشّ الشماس الثقيل ببعض منه ، فجرى وراءه شيخ الكنيسة بكل أبهته وجلاله . وطاف بالمعاهد التي مارس فيها أول تجارب الحب الصبياني

العابث ، وولج الحدائق والمتنزهات فما رأى هناك أثراً من آثار صباه ، فقد كان كل شيء قد حال وتبدّل ، فلم يشعر فوزنتزين بشيء من الحنين ينفخ الحياة فى روحه الخامدة ، ولم ينعم لذكرى الشباب بذلك الحزن الجميل اللطيف المتواضع المتأمل ، فهز رأسه : « أجل ... أجل ... إنها بداية الهرم وما باليد من شيء ... »

ثم عرض له شأن من شئون العمل حمله إلى « كيف » ليوم ، فبلغ « أودسة » أول الأسبوع المقدس[1] . وثار البحر فتلبّث فوزنتزين لأنه لم يكن ملاحاً ماهراً . وفى السادسة من مساء السبت أقلعت به سفينة « الدوق الأعظم ألكسى » من فرضة براكتشكوى . ولم يودعه أحد فسر لذلك إذ لم يكن يحتمل ما يفرضه موقف التوديع من تكلف ونفاق

وكان السافرة قليلين وسوادهم من ركاب الدرجة الثالثة . وجاء فوزنتزين خادمه منبئاً أن في الدرجة الأولى — عداه — سيدة وابنتها . فقال الكولونيل فى ارتياح : « حسن جداً .. » وكان كل شئ ينبئ بسفرة هادئة مريحة ، فقد كانت غرفة فوزنتزين حسنة واسعة وضيئة النوافذ ؛ وكان البحر قد هدأ وتطامن بعد عصف وثورة ، وكسته أمواج رخية طفقت تهدهد الباخرة وتداعبها فى لين ورفق . فنام فوزنتزين ليلته تلك كما لم ينم منذ شهور بل منذ أعوام حتى أيقظه صفير الباخرة وقد شارفت بوبا توريا ، ودبيب الأقدام على ظهرها . فارتدى ملابسه سريعاً ثم طاب شايا وصعد . وكانت الباخرة تسبح في ضباب وردى شف مدت فيه الشمس أسلاكا من عسجد . وكان الشاطئ الرملى يلتمع من بعيد والبحر يغسل جوانب السفينة فى لين . وتابعت الباخرة سبيلها فهبط فوزنتزين إلى قاعة الطعام فرأى منظراً عجباً ! رأى الموائد قد صفت إلى الحيطان وزينت بالزهور وأغذية عيد الفصح[1] ، وكانت أشعة الشمس الوضاءة ترسم على أغطية الموائد دوائر من ذهب ، وتصبغ بيض العيد بحمرة الورد وزرقة السفير[2] ، وتتوهج تحتها أزهار الخزامى والبنفسج والسوسن والثالوث

وأقبلت سيدة تفطر ، فأطلق إليها فوزنتزين نظرة لمّاحة إذ هى مارة به ، وما كان بها من شباب ولا جمال ، ولكنها كانت ذات قوام خصيب ريان ، وكانت ترتدى ثوباً بسيطاً محبوكاً رمادى اللون موشى بالحرير عند الطوق وأطراف الأكمام . وكان رأسها مغطى بوشاح شف أنيق ضارب إلى الزرقة ، وكانت تحتسى شايها وتقرأ فى نفس الوقت كتاباً فرنسياً كما حدس فوزنتزين من اندماج حجمه واصفرار غلافه

وأوحى إلى فوزنتزين عند رؤيتها كأن فيها شيئاً مألوفاً ولكنه بعيد العهد . لم يطالع ذلك فى محياها بل فى احديداب رقبتها ، وارتفاع حاجبيها كلما بصرت به . ولكن ذلك التأثير اللاشعورى لم يلبث إلا قليلا حتى نسى وانمحى ؛ وسرعان ما ارتفعت حرارة الجو تذكي الرغبة فى نزهة على ظهر السفين ،

(١) الأسبوع الذى يسبق سبت الخلاص Holy Week ويسمى بالانجليزية أيضاً Passion Week

(١) عيد بعث المسيح Easter

(٢) نوع من الياقوت أزرق اللون Saphire

فصعدت السيدة وجلست على مقعد إلى مؤخر الباخرة ، فكانت تقرأ لحظة ثم تريح الكتاب على فخذها ، وتحدق في البحر كأنما استهوتها دوّاماته الدوّارة ، ثم إلى الشاطئ الرملي المنعرج تشرف من فوقه أعشاب قليلة

وراح فوزنتزين يذرع السفين جيئة وذهوبا . وسنح بالسيدة مرة فنظرت إليه محدقة ، وتفرّست فيه متسائلة ، فخيل إليه ثانية أنهما التقيا في مكان ما . ثم ألح عليه ذلك الشعور وأزعجه وقد وثق أن السيدة تبادله إياه . بيد أن ذاكرته لم تطاوعه وإن ألحف وأطال التفكير . فأقبل نحو السيدة للمرة العشرين ، ولكنه اقترب منها هذه المرة في يُسر أدهشه ، ورفع أصابعه إلى قبعته العسكرية وصفق مهمازيه صفقة خفيفة وقال :

« معذرة لما افترضت .. ولكني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الظن أنا تعارفنا من قبل . . أنا متعارفان من عهد بعيد .. »

لم تكن جميلة على الاطلاق . هي شقراء خفيفة الحاجبين تُفصّل شعرَها الأحمر شعراتٌ مسمرة يخفيها البريق عن أن ترى من بعيد . وتغطي عينيها الزرقاوين أهداب خفيفة ، ويبرقش النمش وجهها المتغضّن . غير أن فمها كان غضاً ورديا ممتلئاً بَيّن القطع جميل الزوايا

أجابته : « وأنا أيضاً أجلس هنا وأعجب إن لم نكن قد التقينا ... اسمي لقوفا ... هل عرفتني ؟ »

« إني آسف ... أنا أدعى فونتزين »

فالتمع في عيني السيدة بريق سرور ، وأضاء صفحتها نور ابتسامة مألوفة ، حتى لقد خُيّل لفونتزين أن سوف يذكرها في لحظة ، ولكنها صاحت في جذل وهي تمد إليه يدها :

« فونتزين ؟ ! كوليا فوزنتزين ؟ ! هل عرفتني الآن ؟ إن اسمي الزيجي لقوفا ... ولكنك تذكر ولا شك ! أفلا تذكر موسكو ، وشارع پوفارسكي وحارة بوريسوجلوبسكي ، وبيت الكنيسة وصاحبك في المدفعية « أركاشا إرلوف ؟ »

وارتعشت اليد التي امتدت تصافح كف السيدة وشدت عليها بقوة فكأنما أعشاها بريق الذكرى

« يا إلهي ! أحقاً لينوتشكا ؟ ! إنني أستميحك العفو يا إلينا يا إلينا ... »

« ڤلاديميروڤنا . لقد نسيت ! وأنت كوليا ... كوليا بعينه ... ذلك الفتى الخجول النفور ذو الحس الرهيف ! أي عجب ! أي لقاء عجيب ! هلا جلست ؟! كم أنا مسروره ! »

وقال فوزنتزين : « حسن . حدثيني عن نفسك كيف حال أركاشا ؟ وألكسندرا ميلڤنا وأولڤشكا ؟ »

* * *

فعند ما كان فوزنتزين طالباً يتأهب للجندية اتصلت حباله بحبال زميل يدعى إرلوف . فكان يمضي أيام الأحد بين أهل صديقه ، وينعم معهم بعطلة عيد الخلاص وعطلة عيد الميلاد بل بكل عطلاته وقبل أن يلحق بالمدرسة العسكرية دهم أركاشا مرض شديد ، فاضطر آل إرلوف إلى أن ينتجعوا به الريف ، ومنذ ذلك الحين انبتّت الوشيجة التي ناطت فونتزين بهم حيناً . ومنذ سنين عديدة سمع أن لينوتشكا قد عقدت خطبتها على ضابط اسمه جنيشوك ، أطلق على نفسه الرصاص فجأة لسبب غير ذي بال

وقالت مدام لفوفا :

« لقد مات أركاشا فى الريف فى السنة التسعين بحُمّى فى رأسه ، ولم تعمر « ماما » بعده غير سنتين ، وأتمت أولتشكا دراستها الطبية فهى اليوم طبيبة أولى فى سردوبسك ، وكانت قبل جراحة مساعدة فى جاكين ، وهي تأبى الزواج إباء شديداً ، وإن كانت قد سنحت لها فرص كثيرة سائغة ؛ أما أنا فقد تزوجت منذ عشرين عاماً — وتعثرت على زاوية فمها ابتسامة — لقد أصبحت الآن عجوزا وزوجى من ملاك الأراضى ، وهو محقق أول لا طويل الباع ولا عريض الشهرة ؛ ولكنه رجل شريف أمين صاحب أسرة ، لا يشرب الخمر ولا يلعب الميسر ولا يكلف بالنساء كـكثير من رجال هذا الجيل ، وهذا ما أحمد الله عليه ... »

فقاطعها فوزنتزين :

« أفلا تذكرين أنى أحببتك مرة يا إلينا فلاديميروفنا ؟

فضحكت ، وبدا على محياها كأنه انقلب شاباً من جديد ولمحت عين فوزنتزين بريق أغطية ذهبية فى أسنان كثيرة

« أى هراء ! لقد كان ذاك تجاذباً صبيانياً وحسب . بل لقد كان أقل من ذلك . إنك لم تكن تحبنى على الاطلاق ، بل لقد كنت تحب بنات سنلتكوف الأربع ، كلا بدورها . فلما تزوجت الأولى ألقيت بقلبك عند قدمى الثانية ، وهكذا على التعقيب ... »

فقال فوزنتزين فى بشاشة لاعبة :

« آه ! إذن فقد كان بك شىء من الغيرة علىّ ؟ »

« كلا ... مطلقاً ... فما كنت أكن لك إلا مثلما كنت أكن لأخى أركاشا . وعندما بلغتما السابعة عشرة انتابنى شىء من الضيق لما صرفت اهتمامك عني . إنها مهزلة ، ولكنك تعلم أن الفتيات لهن قلوب النساء . قد لا نحب الصامت الخائب ولكن ذلك لا يمنعنا من الغيرة عليه . وعلى أية حال فليس هذا الكلام إلا هراء . خبرنى كيف أنت وماذا تعمل ؟

فحدثها عن نفسه ، عن المجمع ، عن الحرب ، عن عمله فى الجيش ، عن عمله الحالى . كلا إنه لم يتزوج وقد فات الأوان . ولقد كانت له بطبيعة الحال نزوات شتى ، وعلائق وشيجة

ثم فتر بينهما الحديث وجلسا صامتين يترامقان النظر من عيون متعاطفة ظللتها غشاوة من دموع . وتشبحت فى ذاكرة فوزنتزين صور الماضى تلوح وتنتعش من وراء ثلاثين عاماً . لقد كان أول عهده بلينو تشكاولما يبلغ كلاهما الحادية عشرة ، كانت طفلة نحيلة متقلبة الأهواء مُغيظة الفعال دائمة العراك لا ترى فيها لمحة من جمال ، فى وجهها كلف وفى ذراعيها وساقيها طول ، خفيفة الحاجبين حمراء الشعر تندمن شعرها خصلتان رفيعتان تنوسان على خديها وكان الشغب متصلاً بينها وبين فوزنتزين وأركاشا ، حتى ليقضى بهم النزاع أحياناً إلى التضارب والتلاطم وما كانت أولتشكا لتشاركهم عبثهم هذا ، فقد كانت تبدو عليها سمة الصدر ورجاحة العقل وسمت الوقار . وكانوا دائمى التردد أيام العطلات على المسارح والملاعب ، يشتركون فى حفلات عيد الميلاد وتلوين بيض عيد الخلاص ، ويتكايدون ويتغايظون كأنهم

دُمَىً خشبية صغيرة . وعلى هذا الحال تقضت ثلاث سنين ثم ذهبت لينوتشكا — على عادتها — لتقضي الصيف بمنزلهم الريفي بجماكين . وعادت في الخريف إلى موسكو فرآها فوزنتزين وقد تبدلت حالاً غير الحال، ففغر فاه واتسعت عيناه دهشاً . كانت لا تزال بمنأى من أن تسمى جميلة . ولكن كان فيها سحر أروع من سحر الجمال . ذاك سحر الأنوثة الزاهرة المتفتحة تأتي بالمعجزات بين يوم وليلة ، وترد الطفلة الخشنة الطويلة الذراعين والساقين فتاة ساحرة . فقد ظل وجه لينوتشكا محتفظاً بذلك اللون العميق المورّد يجري من تحته دم الشباب الحار المرح . وبدأت أردافها تثقل وتستدير ، ونضج صدرها وبرزت زواياه وانتعش جسمها كله ، وجرى فيه ماء الشباب يكسوه ليونة وغضارة وجمالاً

وسرعان ما تحوّل ما بينهما . فقد كانا في أحد اجتماعات يوم السبت يلعبان في غرفة نصف مظلمة فبدآ يتصارعان ، وكانت النافذة لا تزال مفتوحة وقد انبعثت من الحديقة الأمامية نسمات الخريف المبكر، ورائحة الأوراق الذابلة ؛ وخفقت في الفضاء دقات حزينة بطيئة يرسلها الجرس الكبير في كنيسة بوريسوجلوبسكي

وتلاقّا بالسوق ، وتشادا بالأذرع ، وتهاتّبت على وجهيهما أنفاسهما المبهورة . ثم تدافع الدم فجأة إلى خد لينوتشكا حتى بدا في ظلام الغروب واضحاً جلياً . وراحت تهمس في اضطراب وابتسار وغضب وقد غضت طرفها :

« دعني وحدي .. دعني أذهب .. إني لا أريد .. »

ثم أردفت وهي تحدجه بنظرة غاضبة من عينيها البراقتين : « أيها الولد البشع الثقيل ! »

وكان الولد البشع الثقيل واقفاً ويداه ترتجفان وقد ارتختا إلى أسفل ، بل لقد كانت ساقاه ترتعدان ، وكان العرق يَنْبَجِسُ من جبينه . لقد كان اللحظة يحس بين ذراعيه جسدها الرشيق الخاضع المتأوّد الأنثوي ، ويلمس بصدره ثدييها الراسخين البسرين المطاوعين الفتيّين ؛ ويشم رائحة جسدها ... رائحة مسكرة كأنها زهور الحور !

وبدأ فوزنتزين عامه ذاك متخاذلا ثائراً مرير الفكر خفيّ الأحزان هتان الدموع ؛ وبات نفوراً خجولا مضطرباً عاصياً متمرداً . فكانت لا تمضي لحظة إلا مد ساقه إلى كرسي فأوقعه ؛ أو مد يديه فأمسك بينهما شيئاً طرياً ، أو قلب فناجين الشاي واللبن على المائدة . فكانت الكسندرا ميليفنا تقول عنه في لطف وعطف : « لقد أصبح كوليانا شديد النِّفار وحشي الطباع . »

وكانت لينوتشكا تهزأ به . فقد كان يقف وراءها سامداً وهي ترسم أو تطرز ، ويحدق في رأسها الحنيّ فيستشعر إحساساً عجيباً بالألم والسرور ؛ ولقد ينظر إلى نحرها الأبيض ينوس عليه شعرها الأصفر الخفيف المتموّج ، أو ينظر كيف يتكسر إزارها المدرسي الأسود حينما تتنفس ، ثم يعود فينبسط ويستدير ، ويمتلئ عند ما تمتلئ رئتها . وكان مرأى السوارين البسيطين على يديها البيضاوين الأنثويتين يصاحبه أنى ذهب ، ورائحة الحور تتبعه أينما كان : في المدرسة أو في الكنيسة . وكانت دفاتره وأغطية كتبه تمتلئ بالحرفين الأولين من اسمها ا . ا. وكانا أيضاً محفورين في غطاء صندوقه ،

وسط قلب ممزق ملتهب . وكانت الفتاة الصغيرة تدرك بغريزة المرأة كنه صمته الخاشع المتبتل . ولكنه كان فى عينيها فرداً من الأسرة ، مألوفاً إلى حديباعد بينها وبين أن تحبه . أما هو فقد رآها قد انقلبت مخلوقاً عجيباً يانعاً براقاً شذياً ، وإن بقى لديها ذلك الغلام العنيف ذا الصوت الخفيض والسترة العسكرية الضيقة والسراويل الواسعة . فكانت تغازل معارفها من صبيان المدارس في براءة ، وتعابث ابن القسيس فى ساحة الكنيسة . وكان يلذ لها أحياناً أن تصوب إلى فونتزين نظرة من نظراتها الخاطفة الذكية المرهفة ، فكأنها قط يراود فأراً . فإذا نسى نفسه ، وشد على يدها شيئاً ، هددته ببنان مورد ، وقالت ملمحة : « أنظر ... لأكشفن « لماما » عن كل شىء ! » فتشيع البرودة فى أطراف فوزنتزين ، ويملأ قلبه خوف قوى صادق ؛ حتى لقد أبلس وأعد العدة ليحب كبرى بنات سنلنكوف . ولكن قلبه الذى فاض بالوجد عرف السعادة لحظة فى عيد الخلاص ...

كان قد ذهب مع آل إرلوف إلى صلاة منتصف الليل فى كنيسة بوريسو جلوبسكى ؛ حيث كان لا لكسندرا ميليڤنا مكان خاص فرش ببساط خاص فوقه كرسى وثير . وتلبثت الكسندرا ميليڤنا وأولنتشكا فى الكنيسة لتريا تبريك خبز العيد وكعكته ، بينما غادر الكنيسة كوليا وأركاشا ولينوتشكا . واختفى أركاشا فى الطريق فجأة وكأنما ابتلعته الأرض ، فتابع كوليا ولينوتشكا السير وحيدين .

كانا يسيران وقد اشتبكت الذراع بالذراع ، ويشقان الطريق وسط الزحام في خطى متطابقة منتظمة . وكان كل شىء يسكرهما فى تلك الليلة الرائعة: الغناء المرح ، والشموع الكثيرة والتقبيل والضحك والجمع المندفق ، وائتلاق النجوم فى السماء الفاتحة ، ورائحة الأوراق الفضة من الحدائق المسوّرة ؛ وذلك التقارب غير المألوف ، وشعور الضيعة وسط الزحام اللجى . وجذب فوزنتزين ذراعها إليه كأنما بغير وعى ، فلم تبد رداً ملحوظاً ؛ فأعاد تلك الشدّة الخفية فاستجابت لها ، فتلمّس فى الظلام أطراف بنانها ، فمد يده عليها فى لطف فلم تقاوم ولم تتفلّت ولم يبدُ عليها غضب

وبلغا بوابة البيت ، وكان أركاشا قد تركها مفتوحة لهما ، وكان لا بد — للوصول إلى البيت — من عبور جسر أقيم بين صفين من أشجار الزيزفون لاجتناب الرُّذاذ . فلما اصطفقت البوابة وراءهما طفق يقبل أصابعها الدافئة اللينة الغضة

« لينوتشكا ... إنى أحبك ... إنى أحبك »

وطوق جيدها بذراعه وهصرها إليه ، وقبّلها قرب الأذن . وانحدرت قبعته وسقطت على الأرض فما أبه بها ، وظل يقبل خديها الباردين وهو يهمس كالمحموم : « لينوتشكا ... إنى أحبك ... إنى أحبك ... »

وعثر بشفتيها وهى تهمس :

« كلا ... كلا ... دعنى أذهب ... دعنى... »

أى شفتين حلوتين ملتهبتين ساذجتين ! لم تقاوم حين قبلها ، ولكنها لم تبادله قبلاته وراحت تتنفس فى سرعة وعمق وخضوع ؛ ففاضت دموع الفرح على خديه تشيع البرد فيهما . وعند ما انتزع نفسه

عن شفتيها ، ونظر إلى النجوم تضيء من خلال أغصان الزيزفون رقص فرحاً وانفجر باكياً ...

« لينوتشكا ... إني أحبك ... »

« دعني وحدي ... ! »

« لينوتشكا ! »

فصاحت في غضب ما كان منتظراً :

« أيها الولد البشع الثقيل ! سوف ترى ! لأكشفنّ « لماما » عن كل شيء ! سوف أخبرها ولا شك ... ! »

ولم تخبر أمها بشيء ... ولكنها لم تعد تنفرد به منذ تلك الليلة . ثم أقبل الصيف ...

« ... وهل تذكرين ... يا إلينا فلاديميروفنا ، كيف قبّل صبيّ فتاة قرب بوابة بيت الكنيسة في مساء جميل من أمسية عيد القيامة ؟ »

فأجابته وهي تضحك في سماحة :

« أنا لا أذكر شيئاً أيها الولد البشع الثقيل ! وعلى أية حال فهاك ابنتي قد أقبلت ، ويجب أن أقدمكما . لينوتشكا ! هذا نيكولاي إيفانوفتش فوزنتزين ... صديق قديم ، قديم ، من أصدقاء طفولتي . وتلك ابنتي لينوتشكا ؛ وهي الآن في سنّي ذلك المساء الجميل من أمسية عيد الفصح »

فقال فوزنتزين :

« لينوتشكا الصغيرة ولينوتشكا الكبيرة »

فأجابته مدام لقوفا — في شيء من المرارة — تصحح قوله :

« كلا ... لينوتشكا المجوز ولينوتشكا الفتاة »

وكانت لينوتشكا تشبه أمها شبهاً كبيراً ، إلا أنها أجمل من الثانية أيام صباها ، وكان لها — بدل شعر أمها الأحمر — شعر كستنائي ذو لمعان معدني . أما الحاجبان فسوداوان بيّنان ، وفي الفم اكتناز واستفزاز ، وإن كان بكراً نديّاً جميلاً

وكانت الفتاة تبدي اهتماماً بالمناورات المشمة ، فشرح لها فوزنتزين عملها وكيفية تكوينها ، ثم طفق يتحدث عن أعماق البحر الأسود ، وعن عمل الغواصين ، وعن حوادث السفن ؛ وكان محدثاً ذرب اللسان فأصغت الفتاة إليه وهي تتنفس من خلال شفتين منفرجتين ولا تحول بصرها عنه

وكان كلما أنعم النظر إليها ملأ قلبه شعور من الحزن الرخي الجميل — عين الشعور الذي كان يتوق إليه في موسكو — إلا أنه أعمق وأوسع وأبعث على الايثار

وعندما غادرتهما الفتاة لتطل على ديرهرسونسكي تناول يد لينوتشكا الكبيرة فقبلها وقال مفكراً :

« إن الحياة بعدُ عاقلة ، ولا بد للانسان من أن يخضع لأحكامها ، وهي إلى ذلك جميلة ، فانما الحياة بعث متصل للأموات ؛ وسوف نذهب أنا وأنت ، وسوف نفنى ، وتنتعش من جوارحنا وأفكارنا وأعمالنا ومبادئنا وخيالاتنا ومواهبنا لينوتشكا أخرى ، وفوزنتزين آخر ؛ فكل شيء متصل بالآخر منوط به ، ولسوف أذهب ، ولكني سوف أبقى ؛ وليس لنا إلا أن نحب الحياة ونخضع ؛ فانا نعيش سويّا ، أحياء ومبعوثين »

وانحنى يقبل يدها مرة أخرى . فلثمت خده الأغبر في حنان ، ثم تبادلا النظرات فامتلأت مآقيهما بالدموع ، وابتسما ... بسمة حلوة متعبة حزينة ...

شكري محمد عياد